نهضة الأقطار العربيَّة(١)

لا ريب في أنَّ النَّهضة واقعةٌ في الأقطار العربيَّة ، مستطيرةٌ في أرجائها استطارة الشَّرر يُضرِم(٢) في كلِّ جهةٍ ناراً حامية ، ويستمدُّ من كلِّ ما يتَّصل به لعنصره الملتهب ، ولا ريب في أنَّ الشَّرق قد تفلَّت من أوهام السِّياسة ، وخرافتها ، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمناً ، وتابعه مدَّةً ، وعرفه بمقدار ما بلاه ، وكذَّبه بقدر ما صدَّقه ، ونفر منه بقدر ما اطمأنَّ إليه ، ولا ريب في أنَّ العقل الشَّرقيَّ قد تطوَّر ، وأدرك معنى نكث العهد ، ونقض الشرط في السِّياسة الغربيَّة ، وعلم : أنَّ ذلك هو بعينه العهد والشَّرط في هذه السِّياسة ما دامت المفاوضة ، والتعاقد بين الذِّئب والشَّاة . . . ولا ريب : أنَّ الشَّرق يجاذب الآن مقاليده التي ألقاها ، ويضرب على سلاسله الَّتي تقيَّد بها ، ويكابد الصُّعود ، والهبوط في نهضته هذه ؛ وقد كان بلغ من إغضائه على الذُّلِّ ، وقراره على الضَّيم ، وجهله وتجاهله : أنَّ أوربة ربطت أقطاره كلَّها في بضعة أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض .

غير أنِّي مع هذا كلِّه لا أسمِّي هذه النَّهضة نهضةً إلا من باب المجاز ، والتَّوسُّع في العبارة ، والدَّلالة بما كان على ما يكون : فإنَّ أسباب النَّهضة الصَّحيحة الَّتي

---

(١) كتب هذا المقال جواباً للاستفتاء الآتي الذي وجَّهته إليه إحدى المجلات العربيَّة :

أ ـ هل تعتقدون : أنَّ نهضة الأقطار العربيَّة قائمةٌ على أساسٍ وطيدٍ يضمن لها البقاء ، أو هي فورانٌ وقتيٌّ لا يلبث أن يخمد ؟

ب ـ هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار ، وتآلفها ؟ ومتى ؟ وبأيِّ العوامل ؟ وما شأن اللُّغة في ذلك ؟

ج ـ هل ينبغي لأهل الأقطار العربيَّة اقتباس عناصر المدنيَّة الغربيَّة ؟ وبأيِّ قدرٍ ؟ وعند أيِّ حدٍّ يجب أن يقف هذا الاقتباس ، في النُّظامات السياسيَّة الحديثة ، وفي الأدب والشِّعر ، وفي العادات الاجتماعيَّة ، وفي التربية والتَّعليم ؟ (س) .

قلتُ : صدر هذا المقال ضمن كتاب « فتاوى كبار الكتَّاب والأدباء » عن إدارة الهلال بمصر سنة (١٩٢٣) ، وانظر مقال الرافعي فيه ص (١٣١ ـ ١٤٠) .

(٢) « يضرم » : أضرم النار : أوقدها ، وأشعلها ، وألهبها .

تطَّرد اطِّراد الزَّمن ، وتنمو نموَّ الشَّباب ، وتندفع اندفاع العمر إلى أجلٍ بعينه ، لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذي يفصل بيننا وبين سلفنا ، وأوليتنا ، وإلا فأين الأخلاق الشَّرقيَّة ، وأين المزاجُ العقليُّ الصَّحيح لأمم الشَّرق ، وما هذا الَّذي نحن فيه من روحٍ لا شرقيَّةٍ ، ولا غربيَّةٍ ؟ ثمَّ أين المصلحون الَّذين لا يساومون بملكٍ ، ولا إمارةٍ ، ولا يطلبون بالإصلاح غرضاً من أغراض الدُّنيا ، أو باطلاً من زخرفها ؟ ثمَّ أين أولئك الَّذين تجعلهم مبادئهم العالية القويَّة أوَّل ضحاياها ؛ وتروي منهم عرق الثَّرى الَّذي يغتذي من بقايا الأجداد ؛ لينبت منه الأحفاد ؟

إنَّ الجواب على نهضة أمَّةٍ نهضةً ثابتةً لا يكون من الكلام وفنونه ، بل من مبدأٍ ثابتٍ مستمرٍّ يعمل عمله في نفوس أهلها ، ولن يكون هذا المبدأ كذلك إلا إذا كان قائماً على أربعة أركان : إرادةٍ قويَّةٍ ، وخلقٍ عزيزٍ ، واستهانةٍ بالحياة ، وصِبْغةٍ خاصَّةٍ بالأمَّةِ .

فأمَّا الإرادة القويَّة فلا تنقص الشَّرقيِّين ، وإنَّما الفضل فيها لساسة الغرب الَّذين بصَّرونا بأنفسنا ؛ إذ وضعونا مع الأمم الأخرى أمام مرآةٍ واحدةٍ ، وجعلوا يقولون مع ذلك : إنَّنا غير هؤلاء ، وإنَّ هذا الإنسان الَّذي في المرآة غير هذا الفرد الَّذي فيها . . . ولكن أين الخلق ، وأين العزَّة القوميَّة ، وأين العصبيَّة الشَّرقيَّة ؟ وهذه مفاسد أوربة كلُّها تنصبُّ في أخلاق الشَّرقيِّين كما تنصبُّ أقْذار مدينةٍ كبيرةٍ في نهرٍ عذْبٍ ، فلا الدِّين بقي فينا أخلاقاً ، ولا الأخلاق بقيت فينا ديناً ، وأصبحت الميِّزة الشَّرقيَّة فاسدةً من كلِّ وجوهها في الرُّوح ، والذَّوق ، ولم يعد لنا شيءٌ يمكن أن يسمَّى المدنيَّة الشَّرقيَّة ، وأخذ الحمقى ، والضُّعفاء منَّا يحاولون في إصلاحهم أن يؤلِّفوا الأمَّة على خلقٍ جديدٍ ينتزعونه من المدنيَّة الغربيَّة ، ولا يعلمون : أنَّ الخلق الطارئ لا يرسخ بمقدار ما يفسد من الأخلاق الرَّاسخة . وهم يغتبطون إذا قيل لهم مثلاً : إنَّ مصر قطعةٌ من أوربة ، ولا يعلمون ما تحت هذه الكلمة من تعطيل المدنيَّة الشَّرقيَّة ، والذَّهاب بها ، وإفسادها ، وتعريضها للذَّمِّ ، وتسليط البلاء عليها ، ممَّا لا حاجة بنا إلى التَّبسُّط في شرحه .

لست أقول : إنَّ نهضة الشَّرق العربيِّ لا أساس لها ، فإنَّ لها أساساً من حميَّة الشَّباب ، وعلم المتعلِّمين ، ومن جهل أوربة الذي كشفته الحرب ، ولكن هذا كلُّه على قوَّته ، وكفايته في بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى ، واهتياج العواطف

السِّياسيَّة ؛ لا يحمل ثقل الزَّمن الممتدِّ ، ولا يكفي لأن يكون أساساً وطيداً يقوم عليه بناء عدَّة قرونٍ من الحضارة الشَّرقيَّة العالية ، بل ما أسرعه إلى الهدم ، والنَّقض لو صدمته الأساليب اللَّيِّنة من الدَّهاء الأوربيِّ على اختلافها ؛ إذ قدَّر لأوربة أن تفوز بأسلوبها الجديد ، أسلوب استعباد الشَّرق بالصَّداقة . . . على طريقة ادِّعاء الثَّعلب للدَّجاج : أنَّه قد حجَّ ، وتاب ، وجاء ليصلِّي[1] بها .

والَّذي أراه أنَّ نهضة هذا الشَّرق العربيِّ لا تعتبر قائمةً على أساسٍ وطيدٍ إلا إذا نهض بها الرُّكنان الخالدان : الدِّين الإسلاميُّ ، واللُّغة العربيَّة ، وما عداهما فعسى أن لا تكون له قيمةٌ في حكم الزَّمن الَّذي لا يقطع بحكمه على شيءٍ إلا بشاهدين من المبدأ ، والنِّهاية .

وظاهرٌ : أنَّ أغلبيَّة الشَّرق العربيِّ ومادَّته العظمى هي الَّتي تدين بالإسلام ، وما الإسلام في حقيقته إلا مجموعةُ أخلاقٍ قويَّةٍ ترمي إلى شدِّ المجموع من كلِّ جهةٍ ، ولعمري ! إنِّي لأحسب عظماء أمريكة كأنَّهم مسلمو التَّاريخ الحديث في معظم أخلاقهم ، لولا شيءٌ من الفرق هو الذي لا يمنعهم أن ينحطُّوا إذا هم بلغوا القمَّة ، فإنَّ من عجائب الدُّنيا : أنَّ قمَّة الحضارة الرَّفيعة هي بعينها مبدأ سقوط الأمم ، وهذا عندنا هو السِّرُّ في أنَّ الدِّين الإسلاميَّ يكره لأهله أنواع التَّرف ، والزِّينة ، والاسترخاء ، ولا يرى النَّحت ، والتَّصوير ، والموسيقا ، والمغالاة فيها ، وفي الشِّعر إلا من المكروهات ، بل قد يكون فيها ما يحرم إنْ وجد سببٌ لتحريمه ؛ إذ كانت هذه الفنون في الغالب ، وفي الطَّبيعة الإنسانيَّة هي الَّتي تؤدِّي في نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمَّة ؛ بما يستتبعه من أساليب الرَّفاهيَّة ، والضَّعف المتفنِّن ، وما تحدثه النَّفس من فنون اللَّذَّات ، والإغراق فيها ، والاستهتار بها ؛ وما سقطت الدَّولة الرُّومانيَّة ، ولا الدَّولة العربيَّة إلا بكأسٍ ، وامرأةٍ ، ووترٍ ، وخيالٍ شعريٍّ يفتنُّ في هذه الثلاثة ، ويزيِّنها .

---

(١) انظر قصيدة أحمد شوقي التي مطلعها :

برز الثَّعلبُ يوماً ... في شعار الواعِظينا
فمشى في الأرض يَهْذي ... ويسبُّ الماكِرِينا

وآخرها :

مُخْطِئٌ مَنْ ظَنَّ يوماً ... أنَّ للثعلبِ دِينا

انظر : الشَّوقيَّات (٤/ ١٥٠).

وإذا كان لا بدَّ للأمَّة في نهضتها من أن تتغيَّر ، فإنَّ رجوعنا إلى الأخلاق الإسلاميَّة الكريمة أعظم ما يَصلح لنا من التَّغيُّر وما نصلح به منه ، فلقد بَعُدَ ما بيننا وبين بعضها ، وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر ، وإذا نحن نبذنا الخمر ، والفجور ؛ والقمار ، والكذب ، والرِّياء ؛ وإذا أنفنا من التَّخنُّث ، والتَّبرُّج ، والاستهتار بالمنكرات ، والمبالغة في المجون ، والسُّخف ، والرَّقاعة ، وإذا أخذنا في أسباب القوَّة ؛ واصطنعنا الأخلاق المتينة : من الإرادة ، والإقدام ، والحميَّة ، وإذا جعلنا لنا صبغةً خاصَّةً تميِّزنا من سوانا ، وتدلُّ عل أنَّنا أهل روحٍ وخلقٍ . . . إذا كان ذلك كلُّه فلعمري أيُّ ضيرٍ في ذلك كلِّه ؟ وهل تلك إلا الأخلاق الإسلاميَّة الصَّحيحة ، وهل في الأرض نهضةٌ ثابتةٌ تقوم على غيرها ؟

إنَّ من خصائص هذا الدِّين الأخلاقيِّ : أنَّه صلبٌ فيما لا بدَّ للنَّفس الإنسانيَّة منه إذا أرادت الكمال الإنسانيَّ ، ولكنَّه مرنٌ فيما لا بد منه لأحوال الأزمنة المختلفة ممَّا لا يأتي على أصول الأخلاق الكريمة ، وليس يخفى : أنَّه لا يُغني غَناءَ الدِّين شيءٌ في نهضة الأمم الشَّرقيَّة خاصَّةً ، فهو وحده الأصل الرَّاسخ في الدِّماء ، والأعصاب ، ومتى نهض المسلمون ـ وهم مادَّة الشَّرق ـ نهض إخوانهم في الوطن ، والمنفعة ، والعادة من أهل الملل الأخرى ، واضطرُّوا أن يجانسوهم في أغلب أخلاقهم الاجتماعيَّة ، ولا حجر على حرِّيَّتهم في ذلك إلا كبعض الحجْر على حرِّيَّة المريض إذا أوجرْته[1] الدَّواء المرَّ .

ولمَّا كان المسلمون إخوةً بنصِّ دينهم ، وكانت مبادئهم واحدةً ، ومنافعهم واحدةً ، وكتابهم واحداً ؛ فلا جرمَ كان من السَّهل ـ لو رجعوا إلى أخلاق دينهم ، وانتبذوا ما يصدُّهم عنها ـ أن يؤلِّفوا من الشَّرق كلِّه دولاً متَّحدةً يحسب لها الغرب حساباً ذا أرقامٍ لا تنتهي .

إنَّ هذا الشَّرق في حاجةٍ إلى المبادىء ، والأخلاق ، وهي مع ذلك كامنةٌ فيه . ومستقبله كامنٌ فيها ، وغير أنَّها لا تصلح في الكتب ، ولا في الفنون ، بل في الرِّجال القائمين عليها ، فالقلوب ، والأدمغة هي أساس النَّهضة الصَّحيحة الثَّابتة ، وإذا نحن تأمَّلنا هذه النَّهضة الرَّاهنة ؛ وجدْنا أساسها خرِباً من جهاتٍ كثيرةٍ ،

(١) « أوجرته » : جعلت الدواء في فمه .

ووجدنا المكان الذي لا يملؤه إلا القلب الكبير ليس فيه إلا خيال كاتبٍ من الكتَّاب ، والموضع الَّذي لا يسدُّه إلا الرَّأس العظيم قد سدَّته قطعةٌ من صحيفة .

وقد تنبَّأ نبيُّ هذا الدِّين ﷺ بهذه الحالة التي انتهى إليها الشَّرق العربي بإزاء الغرب ؛ فقال لأصحابه يوماً : « كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر[1] اجتماع الأكلة على القِصاع ؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : أمن قلَّة نحن يومئذٍ يا رسول الله ! أم من كثرةٍ ؟ قال : بل من كثرةٍ ، ولكنَّكم غثاءٌ كغثاء السيل[2] قد أوهن قلوبَكم حبُّ الدُّنيا »[3] .

فوهنُ القلوب بحبِّ الدُّنيا ـ على ما ينطوي في هذه العبارة من المعاني المختلفة ـ هو علَّة الشَّرق ، ولا دواء لهذه العلَّة غير الأخلاق ، ولا أخلاق بغير الدِّين الذي هو عمادها .. ألا وإنَّ أساس النَّهضة قد وُضع ، ولكن بقيت الصَّخرة الكبرى ، وستوضع يوماً ، وهذا ما أعتقده ، لأنَّ الغرب يدفع معنا هذه الصَّخرة ليقرَّها في موضعها من الأساس ، وهو يحسب أنَّه يدفعنا نحن إلى الحفرة ، ليدفننا فيها . . وهذا عمى في السِّياسة لا يكون إلا بخذلانٍ من الله لأمرٍ قدَّره ، وقضاه .

* * *

وإنِّي أرى : **أنَّه لا ينبغي لأهل الأقطار العربيَّة أن يقتبسوا** من عناصر المدنيَّة **الغربيَّة اقتباس التَّقليد ، بل اقتباس التَّحقيق ، وبعد أن يعطوا كلَّ شيءٍ حقَّه من التَّمحيص . ويقلِّبوه على حالتيه الشَّرقيَّة والغربيَّة ، فإنَّ التَّقليد لا يكون طبيعةً إلا في الطَّبقات المنحطَّة ، وصناعة التَّقليد وصناعة المسخ فرعان من أصلٍ واحدٍ** ، وما قلَّد المقلِّد بلا بحثٍ ، ولا رؤيةٍ إلا أتى على شيءٍ في نفسه من ملكة الابتكار ، وذهب ببعض خاصِّيَّته العقليَّة ، على أنَّنا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئاً ، فإنَّ الفرق بعيدٌ بين الأخذ في المخترعات ، والعلوم ، وبين الأخذ من زخرف المدنيَّة ، وأهواء النَّفس ، وفنون الخيال ، ورونق الخبيث ، والطَّيب ؛ إذ الفكر الإنسانيُّ إنَّما ينتج للإنسانيَّة كلِّها ، فليس هو ملكاً لأمَّةٍ دون أخرى ؛ وما العقل القويُّ إلا جزءٌ من قوَّة الطَّبيعة .

---

(١) « بنو الأصفر » : هم الروم ، ومن إليهم من الأوربيين . (ع) .

(٢) « الغثاء » : ما يحمله السَّيل من الهشيم ونحوه ممَّا تحطَّم ، وتعفَّن ، ولا قيمة له ، ولا قوَّة فيه . (ع) .

(٣) رواه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٥/ ٢٧٨) .

فإن نحن أخذنا من النِّظامات السِّياسيَّة فلنأخذ ما يتَّفق مع الأصل الرَّاسخ في آدابنا من الشُّورى ، والحرِّيَّة الاجتماعيَّة عند الحدِّ الذي لا يجور على أخلاق الأمَّة ، ولا يفسد مزاجها ، ولا يضعف قوَّتها .

وإذا نقلنا من الأدب ، والشِّعر ؛ فلندع خرافات القوم ، وسخافاتهم الرِّوائيَّة إلى لبِّ الفكر ، وروائع الخيال ، وصميم الحكمة ، ولنتَّبع طريقتهم في الاستقصاء ، والتَّحقُّق ، وأسلوبهم في النَّقد ، والجدل ، وتأتِّيهم إلى النَّفس الإنسانيَّة بتلك الأساليب البيانيَّة الجميلة ؛ الَّتي هي الحكمة بعينها .

وأمَّا في العادات الاجتماعية فلنذكر : أنَّ الشَّرق شرقٌ ، والغرب غربٌ ، وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده ، والقوم في نصف الأرض ، ونحن في نصفها الآخر ، ولهم مزاجٌ ، وإقليمٌ ، وطبيعةٌ ، وميراثٌ من كلِّ ذلك ، ولنا ما يتَّفق ، وما يختلف ، وإنَّ أوَّل الأدلَّة على استقلالنا أن ننسلخ من عادات القوم ، فإنَّ هذا يؤدِّي بلا ريبٍ إلى إبطال صفة التَّقليد فينا ، ويحملنا على أن نتَّخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا ، وينمِّي أذواقنا الخاصَّة بنا ، ويطلق لنا الحرِّيَّة في الاستقلال الشَّخصيِّ ، ولقد كنَّا سادة الدُّنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربيَّة التي رأينا منها ، ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا ، وأنوثة نسائنا على السَّواء ، وما هؤلاء الشُّبَّان المساكين الَّذين يدعون إلى بعض هذه العادات يعملون على بثِّها في طبقات الأمَّة إلا كالَّذي يحسب أنَّ أوربة يمكن أن تدخل تحت طربوشه . ولقد غفلنا عن أنَّنا ندعو الأوربيِّين إلى أنفسنا ، وإلى التَّسلُّط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعيَّة ؛ لأنَّها نوعٌ من المشاكلة بيننا وبينهم ، ووجهٌ من التَّقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما في أقواهما ، ويضيِّق دائرة الخلاف بينهما ، ثمَّ هو من أين اعتبرته وجدته في فائدته لأوربيِّين أشبه بتليين اللُّقمة الصُّلبة تحت الأسنان القاطعة .

وهل نسي الشَّرقيُّون أنْ لا حجَّةَ للغرب في استعبادهم إلا أنَّه يريد تمدينهم ؟ وحيثما قلنا : « الدِّين الإسلامي » فإنَّما نردي الأخلاق ؛ الَّتي قام بها ، والقانون الَّذي يسيطر من هذه الأخلاق على النَّفس الشَّرقيَّة ؛ وهذا رأيُنا هو كلُّ شيءٍ ؛ لأنَّه الأوَّل ، والآخر[1] .

* * *

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلمه في الأصل الذي تحت أيدينا . (س) .